دلالة الحضور الديني في سياق المدح عند ابن هانئ الأندلسي

The significance of religious presence in contextualising praise for Ibn Hani Al Andalusi

1مريم سواعدي*

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف(الجزائر)، مخبر نظرية اللغة الوظيفية

m.souadi@univ-chlef.dz

2 أ/د: محمد رزيق

rsedik@ymail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف(الجزائر)

تاريخ الارسال2022/08/02 تاريخ القبول 2022/09/06 تاريخ النشر2022/09/23

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الوقوف على دلالات الحضور الديني في سياق المدح عند ابن هانئ الأندلسي، هذا الأخير الذي شدّ الرّحال نحو التّراث الديني، يستقي منه ما يثري تجربته الشّعرية، فوجدناه يطوف بالأماكن المقدّسة، يستحضر الشّخصيات التّراثية الدينية، ويقف على القرآن الكريم يقتبس منه ما يشاكل شعره، لما فيه من بديع اللّفظ، وقوّة المعاني، براعة التصوير، وبلاغة الحجّة، هذا التّراث الذي انطوى على دلالات كيّفها ابن هانئ وفقا لما اقتضاه نسيجه الشّعري، وما توافق وسياق المدح عنده.

الكلمات المفتاحية: دلالات الحضور الديني، سياق المدح، التّراث الديني، الأماكن المقدّسة، الشّخصيات التّراثية الدينية، القرآن الكريم.

Abstract:

This research paper aims to stand on the significance of religious presence in contextualising praise for Ibn Hani Al Andalusi. The latter who travelled throughout religious heritage, drew and enriched his poetic experience. We found him roaming around the holy places, evoked personalities in religion and heritage, stood on the Holy Quran by quoting what resembles his poetry because of its exquisite pronunciation, strength in meaning, prowess of imagery, as well as eloquence of argument. Since this heritage contains meanings, Ibn Hani adapted them according to the requirements of his poetic texture as well as the correspondence of the context of his praise.

Keywords:

Significance of religious presence, context of praise, religious heritage, holy places, personalities in religion and heritage, Holy Quran.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

أثناء رحلة نظمه يستحضر الشاعر مختلف المشارب التي استقى منها ثقافته. فنراه يقف على التّراث بمختلف أضربه واتجاهاته: التاريخي، الأدبي، الشّعبي، الديني... يتخيّر منه ما يتوافق وإبداعه الشّعري، ولما كان التّراث الديني معينا لا ينضب لغناه بالطاقات الإيحائية وتوفره على معطيات وعناصر تجعل من التجربة الشّعرية أكثر مصداقية، نجد الشاعر يفيد منه في تجاربه لما له بالغ الأثر على المتلقي وعظيم المكانة عنده. فيأخذ منه القدر الذي يثري نتاجه الشّعري وهكذا تكتسي تجربته الشّعرية بُعدا جماليا وفنيا. ومن الشّعراء الذين أفادوا من استلهام التّراث الديني في أشعارهم ابن هانئ الأندلسي، الذي نثر منه في ثنايا قصائده الشّيء الكثير. والمتصفح لديوانه تستوقفه ثقافة الشاعر الإسلامية. التي بدت واضحة جلية، بغض النظر عن توجهه الديني. الذي شكّل نقطة تحول في مسار حياته وشعره. ومن هنا قصدنا إلى التساؤل عن مدى توظيف ابن هانئ الأندلسي للتّراث الديني في غرض المدح؟ وما الدّلالات التي انطوى عليها هذا التّوظيف؟ فوقع الاختيار على بعض المؤشّرات التي استوضحناها في هذا البحث.

2. دلالة الأماكن المقدّسة:

اتّخذ المكان عند الشاعر خصوصيّة جعلته يُجاوز الدّلالات الجغرافية إلى دلالات شعرية. فعلاقة الإنسان بالمكان لم تكن وليدة الشّعر وإنما تخطته إلى أبعد من ذلك إلى بداية تكوينه: " فمنّذ أن يكون نطّفة يتّخذ من رحم الأّم مكانا يمارس فيه تكوينه البيولوجي والحياتي. حتّى إذا حان المخاض وخرج هذا الجنين يشّم أوّل نسمة للوجود الخارجي كان المهد هو المكان الذي تتفتّح فيه مداركه وتنمو فيه حواسه"[1] وبهذا تتخذ العلاقة بينهما طابع الجوهرية التي تلزم ذات الانسان وكيانه. فالشاعر روح غير أرواح البشر تستشّعر الوجود والجمال. تنشد السكينة والأمان فنراه يعيش تجربة شعورية تربطه بالمكان فيستحضره تَذَكُّراً أو تَخَيُّلاً. تتعالق فيه عديد الأبعاد (النفسّية والاجتماعيّة) لتتكشّف دلالاته باختلافها وترابطها.

فإذا كانت طبيعة العلاقة بين الشاعر الجاهلي والمكان تتحدد من خلال الابعاد النفسية والاجتماعية لهذا المكان، فإنّها عند الشّعراء الإسلاميين (نخصّ بالذّكر الأماكن الدينية) تتّخذ طابعا دينيا إذ يرتبط بها الشاعر ارتباطا روحيا. فهي الشاهد على انتمائه الديني أو توجهه العقائدي. من هذا المنطلق نجد ابن هانئ الأندلسي يوظّف عديد الأماكن الدينية في معرض مدحه للمُعِزّ لدين الله الفاطمي*، وفيما يلي بسط لبعض هذه الأماكن ودلالاتها في سياق المدح، يقول ابن هانئ الأندلسي:[2]

هَذَا أَمِينُ اللَّهِ بَينَ عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ إِنْ عُدَّتِ الأُمَنَاءُ

هَذَا الّذِي عَطَفَتْ عَلَيْهِ مَكّةٌ وَشِعَابُها والرُّكْنُ والبَطْحَاءُ

وَرِثَ المقِيمَ بِيَثْرِبٍ فَالمِنْبَرُ الأ عْلَى لَهُ والتُّرعَةُ العَلْيَاءُ

1.2 . مكّة:

لا يضاهي مكّة في الشّرف مكان ولا في الرفعة مقام، مهبط الوحي ومنطلق رسالة الإسلام، خصّها الله تعالى دون الأماكن المقدّسة ببيته الحرام، مكان يحمل بما يجاوره أكثر من دلالة. وردت "مكّة" بهذه اللّفظة مرّة واحدة في الذّكر الحكيم في سورة الفتح في قوله تعالى:﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾[3].

عمد ابن هانئ إلى هذا المكان لما له من القدّاسة عند المسلمين، فهو صرح لا تقوى المتغيّرات على اجتثاثه. كما أنّ المسلمين يرتبطون به ارتباطا لا انفصام له. فنراه في توظيفه قد غالى في المدح، وقَلَبَ قاعدة منطق الأشّياء فنقل مركز الاشتياق من الأماكن المقدّسة إلى الممدوح (المعِزّ)، الذي أضحى لرفعة شأنه وجلال قدره في نظر مادحه أُقدّس من أقدّس مكان على وجه الخليقة، فباتت مكّة بأركانه وشعابها وبطحائها تموت شوقا للمُعِزّ. ومنبع اشتياقها يمتد في الزمن لأنه نسل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

فالشّاعر إنّما اختار هذه الأماكن لأنّ شخصية ممدوحه" لا تحقق وجودها الفعلي إلاّ بحضور ووجود هذا العنصر، الذي يبعث فيها الحركة والاستمرارية من جهة، ويضفي عليها جمالية أخرى"[4]. فابن هانئ لم يكن ليستعرض مكّة وما يجاورها من جبال ووديان، لولا أنّها تحمل من الدّلالات والايحاءات ما جعلها تُبين عن طبيعة العلاقة بينها وبين الممدوح. (علاقة الانتساب). ولايزال ينقلنا في أرجائها حتى يصل بنا إلى قلبها وجوهر وجودها، إلى الكعبة المشرّفة فيستحضرها بذكر مكانين فيها فيقول:[5]

والحِجْرُ مُطَّلِعاً إليك تَشَوُّقاً والرُّكْنِ مُهْتَزاً إليك تَشَوُّفاً

المراد بالحِجْرِ حِجر إسماعيل عليه السّلام وهو الجزء النصف دائري الذي يقع في مقابل الجهة الشّمالية من الكعبة بين الركن العراقي والركن الشامي، فهذا المكان جزء من الكعبة يكون الطواف من وراءه، والذي ما إن يُسمح للمسلمين بالصّلاة فيه، حتى نراهم يتدافعون حبا وشوقا لما فيه من عظيم الجزاء، أمّا شاعرنا فنراه هذه المرة يُقِّرُ بحقيقة اشتياق الأماكن لِمُعِزِّه. فها هو الحِجْرُ لمكانته وعظمته يتوق تَشَوُّقاً لممدوحه، هي رغبة قويّة شديدة من الحِجْرِ في التلاقي والمعِزّ، ومن الحِجْرِ إلى الرُّكْنِ، ويقينا أنّه الرُّكْنُ الأسود، الذي به الحجر الأسود، حجر ليس كغيره، فهو مُبارك نزل به جبريل من الجنّة إلى إبراهيم عليه السلام، وزاده تشرّيفا أن وضعه النّبي صلى الله عليه وسلّم مكانه بعد إعادة قريش بناء الكعبة. هذا الآخر ما يفتأ يَرْتَجُ ويرتفع شوقا لهذا القادم. فأي رتبة علاً صاحبه وأيُّ شَأْوٍ أعطاه؟

2.2 يثرب:

ينتقل ابن هانئ من مكّة وما جاورها إلى يثرب. فها هي بعد أن طلع البدر عليها تغدو المدينة المنوّرة وطيبة الطيبة وأحبّ الأماكن إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وزادها تشرّيفا أن ورت في القرآن الكريم بهذه

اللّفظة في قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾[6].

شكّلت يثرب قبل الإسلام وبعده بمعطاها الطبيعي والعمراني والحضاري خصوصيّة عند الشعراء، فكان حضورها طاغيا في أشعارهم، ولا رَيْبَ أنّ حسّان بن ثابت إنّما تغنى بها لما تجيش به نفسه من الاعتزاز والفخر[7]، فالمكان حين يتأصّل في صاحبه، تجده يذود عنه بالنفس والنفيس، تتحرك أشجانه لتبعث أريج الشّعر، فحسّان كرّر الحضور المكاني ليثرب لما لها من خصوصيّة، فقد تعالق من خلالها ما اسْتُبْطِنَ في النفس مع الخارج المكاني. وحتّى أولئك الذين باعدت بينهم وبينها المسافات وُجِدَ حضورها لافتا سواء وقفوا عليها أم لا. فنفوسهم ترحل إليها شوقا ومحبة، أما شاعرنا–ابن هانئ –فقد شكّلت يثرب عنده دلالة شذت عن دلالات غيره. نستقرؤها في قوله:[8]

وَرِثَ المقِيمَ بيثرِبٍ فَالمِنْبَرُ الأَ عْلَى لَهُ والتُّرعَةُ العَلْيَاءُ

يستحضرها لأنّها مدينة رسول الله ودلّ عليها قوله: المقيم بيثرب. بيد أنّه استعمل لفظة (ورث) التي تعني إمْلاَكُ ما للنبيّ إلى ممدوحه. فمنبره صلّى الله عليه وسلّم الذي كان يقف عليه ليخطب في النّاس، ويتسنى له صلّى الله عليه وسلّم رؤيتهم وهم كذلك. كان توظيفه من قبيل نيل مُعِزّه المكانة والعظمة التي اختصّ بها الرسول الكريم.

راح ابن هانئ يتدرج في الأماكن للإبانة على وجاهة ومكانة ممدوحه، من مكّة إلى يثرب، فمنبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم، انتقل بالمكان من المادي الملموس إلى الغيبي، من الأرض صعودا إلى السّماء، فأي سماء اختارها له؟ وأي مكان ملّكه هذه المرة؟ إنّها السّماء السابعة التي فيها جنّة الخلد، فَمَلَّكَهُ تُرعتها أو بابها، الذي لا يُجَاوِزُه إلاّ من أذن له الرّحمان، وشفع له المصطفى عليه السّلام.

وهكذا اتّخذت الأماكن مع ابن هانئ الأندلسي دلالات مغايرة شذت فيها عن المألوف، إذ جرّدها من خاصّيتها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وحتّى النّفسية، وألبسها دلالات تفنّن في تصميمها بما يتماشى وطبيعة المدح.

3. دلالة استدعاء الشخصيات الدينية (الأنبياء والرسل):

شكّلت الشّخصيات الدينية حضورها في المتن الشّعري العربي على مدى الأزمنة والعصور لما لها من خصوصيّة، فقد دأب الشاعر على أن يكون نسيجه الشّعري قويم البناء مترابطا يعكس ذاته معرفيا وثقافيا. فوجد في استحضار الشّخصيات الدينية باعثا لشاعريته " غالبا ما يحرص الشاعر على أن يزيد من تألق قصيدته وإثبات شاعريته بطرق متعددة. وقد كان استدعاء الشخصيات من التقانات الأسلوبية التي يعمد إليها الشّعراء. لتيقّنهم بأنّ استدعاء الموروث له قيمة جمالية وتأثير جلي في روح القصيدة"[9] فالقصيدة بهذا المعنى روح لا تنتشي إلاّ إذا

كانت عناية الشاعر بها نابعة من روحه، التي تنشد الجمال. وهو في رحلة نظمه يبحث عما يتعالق وروحه، فنراه يبحث في دواخل ذاته وخارجها ما يتآلف وشعره.

لما كانت الشّخصيات بمختلف توجهاتها ذات تأثير، ارتأى الشاعر أن يختار الدينية لما لها من جمالية في التوظيف. وتتعدد آليات استحضار الشّخصيات الدينية " كآلية العلم بأقسامه المختلفة (اسم مباشر، كنية، لقب) وآلية الدور التي تتمثل في استدعاء الشّخصية التّراثية من خلال ذكر أفعالها الدالة فقط دون التصريح باسمها في سياق القصيدة، وآلية القول التي تتمثل في استدعاء الشّخصية التّراثية من ذكر أقوالها فقط، دون التصريح بها في سياق القصيدة"[10]. بالرجوع إلى شاعرنا ابن هانئ الأندلسي نجده يستحضر الشّخصيات الدينية لعظيم مكانتها عند المسلمين، فقد جاء توظيفها في المتن الشّعري تبعا لآليات معينة أكسبتها دلالات خاصّة.

1.3 محمد صلّى الله عليه وسلّم:

حبيب الله اصطفاه رحمة للناس هادياً مبشراً ونذيراً يقول تعالى:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[11] شفيع أمته أعلى خلق الله مرتبة وأشرفهم منزّلة، كريم الخُلُق بَهِيُ الصِفات قال تعالى:﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[12]، وصف الله تعالى القمر فقال: ﴿ **وَقَمَرًا مُنِيرًا** ﴾[13] ووصف الشمس فقال ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾[14] وحين وصف حبيبه عليه الصّلاة والسّلام قال: ﴿ **سِرَاجًا مُنِيرًا** ﴾[15] فجمع بين الوصفين ليكتمل الجمال ويلتحم الضياء بالنور.

من أعظم الشّخصيات بشهادة العرب والعجم، لا نجد شاعرا إلاّ وقد ركّز على جانب من جوانبها، أو أفاد من طاقاتها الايحائية ودلالاتها. فها هو الكاتب الألماني "غوته" بعد اطلاعه على الإسلام، ومن خلاله على شخصية النّبي صلى الله عليه وسلم يُقِرُّ بعبقريتة الدينية، ألّف مسرحية " الدراما المحمدية" تحدث في جزئها الأول عن عدائه للإسلام وللنّبي صلى الله عليه وسلّم، وفي جزئها الثاني عن انبهاره بشخصّه صلّى الله عليه وسلّم. كما كتب "أغنية محمد"[16]. تحّدثنا صاحبة الكتاب عن الأغنية فتقول:" في هذه الأغنية، عكس غوته المزج الذي حدث بين الشخصية التي تؤسس دينا جديدا، وبين نفس الشخصية التي تُربي البشر من حولها روحيّا وإيمانّيا، ذلك المزج الغريب الذي أدّى إلى نشر هذا الدّين الجديد وتصاعده بقوة فائقة"[17].

ولعل أشهر قصيدة كتبت في النّبي عليه الصّلاة والسّلام هي البردة لمؤلّفها البوصيري، الذي أبدع في مدح ووصف خير البريّة[18]، وقد كان توظيف البوصيري لشخصيّة النّبي صلّى الله عليه وسلّم من قبيل العشق المحمّدي، صرف فيها من الكلمات والمعاني والأحاسيس ما ينبئ عن حبه وشوقه وعظمة محبوبه. ومن العشق المحمّدي ننتقل إلى شاعرنا ابن هانئ الأندلسي، ناظرين كيف كان استدعاؤه لشخصيّة النّبي في قصيدته المعنونة بـ: "ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ "التي يمدح فيها المعِزّ، بقوله:[19]

وَكَأنَّمَا أَنْتَ النَبِيُّ مُحَمّدٌ وَكَأنَّمَا أَنْصَارُكَ الأَنْصَارُ

أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تُبَشِّرُنَا بِهِ فِي كُتُبِها الأَحْبَارُ وَالأَخْبَارُ

هَذَا الَّذِي تُرْجَى النَّجَاةُ بِحُبِّهِ وَبِهِ يُحَطُّ الإِصْرُ والأَوْزَارُ

هَذَا الَّذِي تُجْدِي شَفَاعَتُهُ غَداً حَقّاً وتَحْمُدُ أَنْ تَرَاهُ النَّارُ

الناظر في الأبيات يجد أن الشاعر وازن في المرتبة بين النّبي صلّى الله عليه وسلّم وبين ممدوحه، وقد استخدم الأداة (كأنّ) التي تفيد التّشبيه والمقاربة، إذ أسقط صفاته وأفعاله صلّى الله عليه وسلّم على مُعِزّه، كما شبّه أتباع المعِزّ بأنصار النّبي الكريم. إذ لم يكن مولّده كسائر النّاس، وإنّما عرّفت بِمَقْدَمِهِ أخبار السّابقين، كما هي الحال بالنّسبة للرّسول الكريم الذي أخبرت الديانات السّابقة عن مَقْدَمِهِ، وكما تكون الرِفْعَة بحب النّبي الكريم وتكون الشّفاعة به، كذلك فإنّ ممدوح ابن هانئ في حبّه الخلاص وبه التّخليص، فهو المنجي والشّفيع يوم القيامة، إذ لم يتحرج من جعله في نفس الدرجة مع حبيب الرّحمان، وبَوَّءه من الرِفْعَةِ ما جعله يوازي منزلة النّبي، واستحضار هذه الشّخصية وتوظيفها أكسبت الممدوح شرف المرتبة وعلو القدر.

راح ابن هانئ بين ثنايا قصائده يُغْرِق في مدح صاحبه، ويعطيه من صفات النّبي صلّى الله عليه وسلّم ومواقفه، وأفعاله الشّيء الكثير، دون أن يَتَحَرَّجَ أو يرى أنّه يُغَالِي في مدح مُعِزّه. وعلى هذا النّحو جَعل يُجَاوِز المعقول بأن نسب لمولاه بعض صفات النبوة والألوهية. في قوله: [20]

فَعَلَيْهِ مِنْ سِمَا النَّبِيّ دَلالَةٌ وَعَلَيْهِ مِنْ نُورِ الإِلَهِ بَهَاءُ

2.3 موسى وهارون عليهما السّلام:

تمتد قصة موسى عليه السّلام امتداد صفحات القرآن الكريم، خصّه الله تعالى بمعجزات لبني إسرائيل، لاقى فيها من التجبّر والطغيان ما صمّ أذانهم، غَلَّق أعينهم وحجّر قلوبهم. بسطت آيات القرآن الكريم قصة النّبي الانسان، فمن مولده إلى نشأته، فتلقيه الرّسالة ودعوته بني إسرائيل، تجسّدت مواقف ومشاعر رابطها الثّقة بالله عزّوجل، بيّد أنّ مشاعر النّبي الإنسانية لا مناص أن يستحكمها الضّعف والخوف، فيستحضر فيها من يُعَاضِّده لتقوى عزيمته، فكان أن ناجى ربه أن يكون السّند أخاه هارون، جاء في الذّكر الحكيم على لسان موسى عليه السّلام﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(12) وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ** (13) ﴾[21]. يزيد رابط الأخوّة المرء صلابة وقوّة، فكيف يكون الحال إذا كان المقصود فصيح القول بليغ الحجّة﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** ﴾[22].

لما كانت قصة موسى عليه السّلام تحمل من الدّلالات ما يجعل المرء يُعجب بها، فيتّحذها نموذجا يستقي منه العبر ليُبْصِرَ واقعه وحاله. نجد أنّ شاعرنا قد سحب من جزئية قصة موسى مع هارون هذا الملمح الأخوي، بما حمله من ترابط وتآزر على مَمْدُوحَيْهِ جعفر بن علي وأخيه يحي بن علي* في قوله:[23]

لَنِعْمَ أَخاً فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ تَصُولُ بِهِ غَيْرَ الهِدَانِ ولاَ الغَمر

كَبَدْرِ الدُجَى كَالشَمْسِ كَالفَجْرِ كَالضُحَى كَصَرْفِ الرَدِى كَاللَّيْثِ كَالغَيْثِ كَالبَحْرِ

لَعُمْرِي لَقَدْ أُيِّدْتَ يَوْمَ الوَغَى بِهِ كَمَا أُيِّدَتْ كَفَّاكَ بِالأَنْمُلِ العَشْرِ

لِذَلِكَ نَاجَى اللَّهَ موسى نَبِيُّهُ فَنَادِى أَنْ اشْرَحْ مَا يَضِيقُ بِه صَدْرِي

وَهَبْ لِي وَزِيراً مِنْ أَخِي أَسْتَعِنْ بِهِ وشُدَّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي

قَرَرْتَ بِهِ عَيْناً وَأَنْتَ اصْطَنَعْتَهُ وَشِدْتَ لَهُ مَا شِدتَ مِنْ صَالِحِ الذِكْرِ

فَمَا مِثْلُ يَحْيَى مِنْ أَخٍ لَكَ تَابِعٍ وَلاَ كَبَنِيهِ من جَحاجِحَةٍ زُهر

راح ابن هانئ في هذه الأبيات مدح يحي بن علي على لسان أخيه جعفر بألفاظ وتعابير تنّم عن صفات الأخ المثالية، فهو السّند إذا ما الخطوب اشتدّت والمصائب تعاظمت. واقتبس من القرآن الكريم ما يشاكل هذا الرابط، فكما كان هارون لموسى الأخ والعضد، المعين والمناصر، كذلك كان يحي لأخيه جعفر.

3.3 . نوح عليه السّلام:

ولنبي الله نوح عليه السّلام مع قومه قصة طال زمانها، شكّل فيها الإيمان والصبر حقيقة لدعوة دامت قرونا من الزمن يدعوهم إلى الله الواحد الأحد، وترك عبادة الأوثان يحذرهم سوء أفعالهم وعاقبة أمرهم فما زادتهم دعوته إلاّ عنتا. لاقى فيها من التكذيب والأذى الكثير، وقد جاء في الذّكر الحكيم على لسان نوح عليه السلام:﴿ **قال ربِّ إِنِّي دعوْتُ قوْمِي ليْلا ونهارا (5) فلمْ يزِدْهُمْ دُعائِي إِلاّ فِرارا (6) وإِنِّي كُلّما دعوْتُهُمْ لِتغْفِر لهُمْ جعلُوا أصابِعهُمْ فِي آذانِهِمْ واسْتغْشوْا ثِيابهُمْ وأصرُّوا واسْتكْبرُوا اسْتِكْبارا (7) ثُمّ إِنِّي دعوْتُهُمْ جِهارا (8) ثُمّ إِنِّي أعْلنْتُ لهُمْ وأسْررْتُ لهُمْ إِسْرارا (9)** ﴾[24].

حاشا أن يترك الله تعالى نبيه لقوم ما زادتهم دعوته إلاّ عتّوا وتمسكا بآلهتهم، لتأخذ قصته منعطفا آخر بعد أن أمره الله تعالى ببناء سفينة عملاقة، فكانت السّخرية والاستهزاء مداراً لهذا الحدث، وكيف لسفينة أن تبحر دون ماء؟ ومن هنا عمد ابن هانئ الأندلسي إلى شخصية هذا النّبي، استقى منها مقدار الصبر والجَلَدْ في سبيل الدعوة إلى الله، وأسقطها على مُعِزّه الذي أضحى ينشر مذهبه الشّيعي الإسماعيلي ويدعو النّاس إليه. فيقول:[25]

لَو كُنْتَ آوِنَةً نَبِيّاً مُرْسَلاً نُشرَتْ بِمَبْعَثِكَ القُرُونُ الأُولَى

أَوْ كُنْتَ نُوحاً مُنْذِراً فِي قَوْمِهِ مَا زَادَهُمْ بدُعائِهِ تَضْلِيلاً

لما كانت دعوة نوح عليه السّلام بداية لقصة جديدة، يعانق فيها المرء أفق النقاء، لتفيض روحه إيمانا وطُهراً، كذلك رأي المعِزّ مذهبه الإسماعيلي، فراح ينشره بين النّاس ويدعو إليه. وكما شملت دعوة نوح عليه السّلام الجميع، كذلك كانت دعوة المعِزّ، حين أبى ذات مرة استبعاد القاضي النعمان لبعض المستجيبين-من مجالس القصر أين كانت تلقى المحاضرات إلى مجالس أخرى لمحدودية إدراكهم- قائلا: " أنّ الجميع (قد شملته الدعوة) واستشهد بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ**﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ وإنما فعل المعز ذلك لأنه لم يشأ أن يحرم مستجيبا من تلقي علوم الباطن، أو علوم أهل البيت كما كانوا يسمونها"[26].

استنادا إلى قول المعِزّ نستخلص أنّه قد سَبَقَ مادحه ابن هانئ الأندلسي في تشبيه نفسه بنوح عليه السّلام، وجعل دعوته رسالة وجب عليه تأديتها لا يُمَيِّزُ فيها بين النّاس، مستشهدا بآيات من الذّكر الحكيم وردت فيها قصة نوح عليه السّلام، حين أبى طرد من آمن بدعوته بطلب من أكابر قومه. وسواء كان ابن هانئ على دراية بهذه الحادثة أم لا، فإننا نجده يستلهم من هاته الشّخصية الدينية أحد جوانبها الدعوية، ويناظرها بصاحبه، الذي راح يدعو النّاس إلى مذهب لم يألفوه. ولما كان الجاهل بالشّيء معرضا عنه معاديا لصاحبه، سوف يلقى من الشّدة والتضيّيق الشّيء الكثير.

4.3 داوود عليه السّلام:

نبي الله داوود عليه السلّام بعثه الله تعالى لبني إسرائيل، لم ترد في القرآن الكريم تفاصيل عن دعوته ولا أخبار قومه، عرضت عديد الآيات صفاته وشمائله، تسخير الطير والجبال له، مُلكه، علمه، حكمته وفصله الخطاب، يقول تعالى في الذّكر الحكيم: ﴿ **اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)** ﴾[27].

أخبرنا الذّكر الحكيم عن خلافته وحكمه بين النّاس في قوله تعالى:﴿ **يا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ(26)** ﴾[28]. عرّفنا على صناعته عليه السّلام، وقدرته على إلانة الحديد في قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾[29]. وفي قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾[30].

صفات وصنائع خصّ بها الله تعالى النّبي داوود عليه السّلام. ولما كانت صفات وصنائع ودعوات الأنبياء أقوامهم، وصبرهم على أذيتهم تبعث في النّاس فضول الاطّلاع حب المعرفة، واستجلاء الحقائق قصد التصديق من عدمه. إذ كيف لبشر أن يُمْلِدَ الحديد دون مصدر يجعل من هاته المادة قابلة للتشكّل؟ تأتي قدرة الله تعالى في ذلك، وفي أن يعلمه تعالى صناعة الدروع.

تعددت صناعات الأنبياء وحرفهم فمن الحدادة إلى النجارة إلى الخياطة وغيرها، نجد من النّاس من عرفها ألمّ بأسرارها وأتقن فنونها. ولما كانت الشّخصيات الدينية ومن خلالها الأنبياء بصفاتهم، وأفعالهم، وحتى صناعاتهم، وحرفهم تضفي بحلولها على النسيج الشّعري طاقات تعبيرية واسعة، ودلالات تشدّ المتلقي، راح الشاعر يستلهم منها ما يُقوي نسيجه الشّعري، فكان توظيفه لشخصية النّبي داوود، ومن خلالها لصنعته دلالات نستكشفها من خلال بيت ورد في قصيدته " لا إمام غير ذي التاج". يقول الشاعر:[31]

فَهُنَّ كَمَا هُزَّتْ قَناً سَمْهَرِيَّةٌ لِسِرْبَالِ داوُدٍ عَلَيَّ هَوَاتِكُ

فعنوان القصيدة ينبئ عن مضمونها في مدح المعِزّ وإظهار الولاء والطاعة له، ليختمها الشاعر بأبيات يستجير فيها ممدوحه أن يعاضده إذا ما الزّمان جار عليه. فلفظة "هُنَّ" في هذا البيت يقصد بها النوائب التي ذكرت في البيت الذي يسبق الشاهد، في قوله:[32]

لآيَةٍ مَا تَسْرِي إِلَيَّ نَوائِبٌ مُشَذَّبَةٌ عن جَانِبَيَ سَوَادِكُ

الشاعر لا يكترث لمقامه عند النّاس، ولا لتقلباتهم فرضى مُعِزِّهِ يغنيه عنهم. بيد أنّ تقلبات الأيام تُرهِبهُ، فلفظة " لآيَةٍ مَا " تحيل إلى التساؤل عن السبب الذي يجعل النّوازل تجيء شديدة قاسية، تسلبه قوّته وتجرّده عزيمته، وما تنفك تبارحه. واستخدم لفظة "مُشَذَّبَةٌ "* التي تعني تعرية الشّجرة أو نزع أغصانها، لتبقى جذعا تحوطه المتغيّرات. فتعرية المرء كتعرية الشّجر تكسر مقاومته. وبالرجوع إلى البيت الأوّل فإنّ هذه النوائب تصيب الشاعر إصابة الرماح الصلبة، التي دلت عليها كلمة "السَمْهَرِيَّةَ"* ولو كان يلبس من الدروع أحكمها صنعة وأشدّها إتقانا، كالدروع التي كان يصنعها نبي الله داوود عليه السّلام، لكانت ضربات الرّماح أشدّ وقعا عليها فتخترقها مقطّعة جسده. فحضور شخصية النّبي داوود عليه السّلام كانت من خلال صنعته. وإنّما وظّفها الشاعر في هذا المقام لِيُبيّن شدّة وقوّة النّوازل، التي لا تُجَابِهُهَا حتّى دروع النّبي داوود عليه السّلام والتي أبدع صنعها.

4. دلالة الاقتباسات القرآنية:

أبهر القرآن الكريم الشّعراء ببلاغته وسحر منطقه، بقوّة معانيه ورصانة ألفاظه، بتشبيهاته وصوره، بقصصه وعِبَرِهِ، فراح الشّعراء يستقون منه ما يتواءم وتجاربهم الشّعرية. والاقتباس من القرآن الكريم لا يتفرّد به الشّعراء دون سائر النّاس. فقد ألّف الثعالبي (ت.429هـ) كتابا عنونه (الاقتباس من القرآن الكريم) ضمّنه " من اقتباس النّاس على اختلاف طبقاتهم، وتفاوت درجاتهم من كتاب الله عزّ اسمه في خطبهم ومخاطباتهم وحكمهم، وآدابهم، وأمور معاشهم ومعادهم، وفي مكاتباتهم، ومحاوراتهم، ومواعظهم، وأمثالهم، ونوادرهم، وأشعارهم، وسائر أغراضهم، وضمنه من محاسن انتزاعاتهم، وبدائع اختراعاتهم، وعجائب استنباطهم واحتجاجاتهم منه...إذ هو مقتبس الألفاظ والمعاني من أحسن الكلام، وأقوم النظام، وأنور النور، وأشفاه لما في الصدور، ذلك كلام رب العزة، وبيانه ووحيه

وفرقانه، وخير كتبه أنزله على خير رسله محمد المصطفى صلى الله عليه وسلّم"[33]، وهكذا يرى الثعالبي أنّ صنوف الناس تقتبس من القرآن الكريم ،لما له من وجاهة الذِكر وقوة المعاني وبلاغة الحجة.

وفي اقتباس الشاعر من القرآن الكريم اِغْنَاء لأسلوبه، يأتي على وجهين: إمّا أخذا مباشرا من آيات القرآن الكريم أو إشارة لمعانيها. فالوجه الأول نصّي " وفيه يلتزم الكاتب بلفظ النّص القرآني وتركيبه"[34]. فمن الاقتباس ما يُبِينُ عن فطنة صاحبه، وقدرته على الأخذ من القرآن الكريم، دونما إخلال بمعنى البيت أو خروج عن حد الاقتباس. ويُعاب على الشاعر إفراطه في ذلك، حين يجنح إلى آياته أو قصصه فيأخذ صورها ويعيد قولبتها، فيأتي شعره إمّا متكلفاً أو قاصرا غير مُصيب المعنى. أمّا الوجه الثاني فهو إشاري "يأخذ فيه الشاعر من القرآن الكريم ما يشير به إلى آية أو آيات منه من غير الالتزام بلفظها وتركيبها"[35].

راح ابن هانئ ينثر في أشعاره من الاقتباسات في مدح مُعِزِّه ومعاونيه، ما ينّم عن ثقافته الإسلامية ومعرفته بالقرآن الكريم، بقَصَصِهِ ومعانيه. إذا ما رجعنا إلى تنشئة الشاعر نجدها إسلامية عربية، يقول ابن خلدون: " وأمّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن الكريم والكِتَابَ من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك ورأسه ومنبع الدّين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشّعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب، وللخط عناية خاصة ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشّيبة وقد شدا بعض الشّيء في العربية والشّعر والبَصر بهما"[36].

أُعْجِبَ المعِزّ لدين الله الفاطمي بشعر ابن هانئ الأندلسي، راح يُدْنِيهِ منه ويغدق عليه من المال، ما جعل الشاعر يُعَظِّمُ مكانته ويشكر عطاءه. ويَسْتَفيضُ في مدحه وحاشيته. فلم يجد بُدّا من أن يلجأ إلى القرآن الكريم، يقتبس منه ما يُجَلِي معاني شعره وصوره. وقد صرّح الشاعر بذلك وهو يُغَالي في مدح الُمعِزّ، إذ يقول:[37]

قَدْ قَالَ فِيكَ اللهُ مَا أَنَا قائلٌ فَكَأَنّ كُلّ قَصيدَة فَيكَ تَضْمِينُ

المراد أنّ ابن هانئ لم يكن ليقول قصائده، أو يُضَمِّنها من القرآن الكريم، لولا أنّ ممدوحه له من المكانة عند الله ما يجعل كلام الله، يتوافق ومديح ابن هانئ. وعن اقتباساته من القرآن الكريم ودلالاتها نورد أبيات يمدح فيها الشاعر مُعِزّهُ ومن والاه. فيقول:[38]

لَو تَلْمَسُونَ الصَّخْرَ لاَ نْبَجَسَتْ بِهِ وَتَفَجَّرَتْ وَتَدَفَقَتْ أَنْهَارُ

البيت اقتباس من قصة موسى عليه السّلام، حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على الحجر، في قوله تعالى:﴿ **فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ** ﴾[39]وفي قوله تعالى:﴿ **فَانْفَجَرَت مِنْهُ** ﴾[40]. ولتوضيح المعنى من البيت، نرجع إلى ابتداء القصيدة، فنجده يقول:[41]

مَا شِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَارُ

من مطلع القصيدة نجد الشاعر يُغرق في ممدوحه، وينسب إليه بعض صفات الألوهية. فيتوضح بذلك المعنى، وأنّ انبجاس الماء وتدفقه كان بفعل قدرة المعِزّ، الذي لم يُعْجِزْه خروج الماء من الصخر. والمتمعن في هذا البيت تستوقفه براعة الشاعر في اقتباسه من القرآن الكريم من خلال توظيفه لفظتي "انبجست" و "انفجرت"، فهل وظّفهما من قبيل الدراية بمعنييهما أم لبناء صرح مدحه؟

بالرجوع إلى تفسيرات القرآن الكريم نجد من العلماء من رأى بترادف اللّفظتين، قال الألوسي(ت.127هـ) " والظاهر استعمالهما بمعنى واحد"[42]، وأورد ابن قتيبة (ت. 267هـ) في مؤلفه تفسير غريب القرآن " فانبجست أي: انفجرت، يقال انبجس الماء كما يقال تفجّر"[43]، وحذا الطبري (ت.310هـ) حذوهما بتفسيره" فانبجست: فانضبّت وانفجرت"[44].

يذهب الراغب الأصفهاني (ت.502هـ) خلاف الرّأي الأوّل فيقول: " الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيّق، والانفجار يُستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل:﴿ **فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾، وقال تعالى في موضع آخر﴿ **فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً** ﴾، فاستعمل حيث ضاق المخرج (العين) اللفظين، وقال تعالى:﴿ **وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا** ﴾ (الكهف/33)، وقال: ﴿ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا** ﴾ (القمر/12)، ولم يقل بجسنا." وعلى نحوه يسير القرطبي (ت: 671هـ) فيفسّر: " (فانبجست) والانبجاس أضيق من الانفجار، لأنّه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا"[45].

من خلال التفسيرات السابقة لمعنى اللّفظتين تظهر مقدرة ابن هانئ في توظيفهما، والراجح أنّ منهج تعليم الأندلسيين كما ذكره ابن خلدون أسهم في تشكيل الحسّ المعرفي، والتّذوّق الجمالي لألفاظ المتن القرآني لدى الشاعر. ومن الاقتباسات أيضا قوله:[46]

وَلَمْ أَجِدْ للإِنْسَانِ إلاَّ اِبْنَ سَعْيِهِ فَمَنْ كَانَ أَسْعَى كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرَا

فالصدر اقتباس من قوله تعالى:﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾[47]، وفي هذا البيت يمدح ابن هانئ جوهر الصقلي قائد جيوش المعِزّ. ويفسّر ابن كثير الآية الكريمة بقوله:" أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه"[48] فالإنسان لا يُحَمَّل إلاّ كَسْبَه. والظاهر أنّ الشاعر يتحدث عن السعي من ناحية الكسب ونيل الثّواب والمجَازَاة، فقد أكسبت جوهر الصقلي مهارته الحربية، وحنكته السياسية مكانة في تاريخ الدولة الفاطمية. بإخضاعه بلاد المغرب لسلطان المعِّز الفاطمي في زمن لا يتجاوز السّنة والنّصف، كما أسهمت نباهته وبراعته القيادية في أن اختاره المعِز قائدا لفتح مصر، وبهذا الفتح أنشأ القاهرة، التي أضحت

منارة الحضارة الإسلامية، ومن مصر فبلاد الشام وفلسطين إلى غيرها من الأقطار[49]. وعن قوة جيش جوهر الصقلي ومدى تحكمه فيه، يقول:[50]

فَقَد ضَرِعَتْ مِنْه الرَّواسِي لَمَا رَاَتْ فَكَيْفَ قُلُوبُ الإِنْسِ وَالإِنْسُ أَضْرَعُ

فَلاَ عَسْكَرٌ مِنْ قَبْلِ عَسْكَر جوهرٍ تَخُبُّ المطَايَا فِيهِ عَشْراً وتوضِع

لقد جَلّ من يَقْتَادُ ذَا الخَلْقِ كُلّه وكلٌّ لَهُ مِنْ قَائِمِ السَيْفِ أَطْوَعُ

يواصل الشاعر في مدح القائد مُشيدا بهمته مُعَلِّيا مكانته:[51]

مَا بَلَغَ الإِسْكَنْدَرُ الرُتْبَةَ التِي بَلَغْتَ وَلاَ كِسْرَى المُلُوكِ وَتُبَّع

سَمَوتَ مِنَ العَلْيَا إِلَى الذَّرْوَةِ التِي تُرَى الشَّمْسُ فِيهَا تَحْتَ قَدرِك تَضْرَع

إِلَى أَيْنَ تَبْغِي، لَيْسَ خَلْفَكَ مَذْهَبٌ وَلاَ لِجَوَادٍ فِي لَحَاقِكَ مَطْمَعُ

بهذا يكون سعي جوهر الصقلي سعيا أكسبه الوجاهة والثّقة عند المعِزّ، وكذا في الدولة الفاطمية ما جعله يحوز المجد. ومن جوهر الصقلي إلى جعفر بن علي الذي أخذ حظا وافرا من شعر ابن هانئ. يقول فيه مادحا مقتبسا من القرآن الكريم:[52]

وَكَانَتْ سَمَاءُ الله فَوقَ عِمَادِهَا إِلَى اليَومِ لَمْ تُسْقِطْ عَلَى أَحَدٍ كِسَفا

وَقَدْ مُلِئَتْ شُهُبًا فَلَمَّا تَمَرَّدت حَوَالَيْهِ أَعْدَاءُ الهُدى أحْدثَتْ قَذفا

من آيات الله عزّ وجل خلقه السماء، بناءها ورفعها، هذا الرّفع الذي أعجز عقول البشر، رغم وروده في القرآن الكريم، إلاّ أنّ تأويل الرّفع وتفسيره اختلف فيه العلماء. فمنهم من يفسره رفعا بأعمدة لا تُرى، وآخرون رفعا من دون أعمدة[53]. وفيه أورد ابن هانئ الأندلسي صدر بيته الأول مقتبسا من قوله تعالى:﴿ **اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾[54]، وقوله تعالى:﴿ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾[55]. فالشاعر لم يفسر عبارة "فوق عمادها" وإنّما تركها لأنّها إعجاز في الخلق. ويستأنف بيته فيقتبس عجُزه من قوله تعالى:﴿ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا** ﴾[56]ومن قوله تعالى: ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفًا مِنَ السَّماءِ** ﴾[57] . ومعنى البيت أن السماء مرفوعة إلى الوقت الذي يمدح فيه الشاعر جعفر بن علي لم تسقط كسفاً أي قطعاً.

أمّا البيت الثاني اقتباس من قوله تعالى:﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا** ﴾[58]، ويفسر ابن كثير هذه الآية بأنّ " السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر"[59]. شهب ترصد من الشياطين من يسترق السمع لا تتخطاه أو تتعداه تصيبه فتهلكه. في قوله تعالى:﴿ **فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا** ﴾[60]. ومن

الآية اقتبس الشاعر عَجُز بيته الثاني فقد شبّه أعداء جعفر بن علي بالشياطين، فحذف المشبّه به وترك ما يدل عليه وهو الشُّهب التي تُقذف من السّماء فلا تبقي على أعدائه. وإلى رابط الأخوة بين جعفر ويحى، ينقلنا ابن هانئ في اقتباس من قصة موسى وهارون عليهما السلام. فيقول:[61]

لِذَلِكَ نَاجَى اللّهَ مُوسَى نبيُّهُ فَنَادَى أَنْ اِشْرَحْ مَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي

وَهَبْ لِي وَزِيراً مِنْ أَخِي أَسْتَعِنْ بِهِ وشُدَّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي

قَرَرْتَ بِهِ عَيْناً وَأَنْتَ اِصْطَنَعْتَهُ وَشِدْتَ لَهُ مَا شِدْتَ مِنْ صَالِحِ الذِكْرِ

عمد ابن هانئ إلى صورة مناجاة موسى ربه بأن يشدّ عضده بأخيه، فنسج على منوالها أبياته، حيث قابل ألفاظ المتن القرآني في قوله تعالى: ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾[62]، وفي قوله تعالى﴿ **وَيَضِيقُ صَدْرِي**﴾[63] بألفاظ البيت الأول، وفي البيت الثاني أخذ من قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)** ﴾[64] وبهذا حوّر السّياق من دعاء موسى عليه السّلام في استنجاده بأخيه هارون عليه السّلام، إلى دعاء جعفر بن علي استنصاره بأخيه يحي بن علي.

نورد من الاقتباس الاشاري هذه الأبيات التي يتحدث ابن هانئ الأندلسي في ثناياها عن المنية، فيقول:[65]

وَمَا النَاسُ إِلاَّ ظَاعِنٌ وَدُمُوعٌ وَثَاوٍ قَرِيحِ الجَفنِ يَبْكِي لِرَاحِلِ

فَهَلْ هَذِهِ الأَيَامُ إِلاَّ كَمَا خَلاَ وَهَلْ نَحْنُ إِلاَّ كَالقُرُونِ الأَوَائِلِ

نُسَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ دَائِمٍ وَنَبْكِي مِنَ الدُنْيَا عَلَى غَيْرِ طَائِلِ

فَمَا عَاجِلٍ نَرْجُوهُ إِلاَّ كَآجِلٍ وَلاَ آجِلٍ نَخْشَاهُ إِلاَّ كَعَاجِلِ

يصوّر ابن هانئ من خلال هذه الأبيات فلسفة الموت والحياة، فمهما طال العمر فإلى الفناء المآل، إذ الدنيا لا تدوم على حال، وكل ما يتوقاه المرء حادث لا محال، وهي اقتباس إشاري من قوله تعالى:﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ لم يستخدم ألفاظ أو عبارات قرآنية صريحة، وإنّما هي إشارات يفهم منها من خلالها أنّ الشاعر اقتبس من القرآن الكريم، ما يخبر به عن هذا القادم الذي لا يستثني أحد. وهكذا جعل ابن هانئ يستقي من القرآن الكريم ما يبعث في شعره جمالية البناء ورصانة الأسلوب، فتناثرت اقتباساته القرآنية في ثنايا مدحه، ولا مجال لذكرها كلها فالمقام لا يتسع لها.

5. خاتمة:

-أدى تَشَبُّع ابن هانئ الأندلسي بالثقافة الإسلامية إلى توظيف التراث الديني، توظيفا تماشى وتجربته الشعرية.

-أبان من خلال توظيفه للتّراث الدّيني على دلالات أخرجته عن المعقول، فإذا به يُجَاهِر بخلجات نفسه دونما اكتراث. فقد جاوز حدود الشرع والأعراف في مدح المعِزّ لدين الله الفاطمي وحاشيته.

- جرّد الأماكن المقدسة من دلالاتها الدينية والمقدسة وألبسها دلالات وفقا لما اقتضاه سياق المدح.

-اتخذت الشخصيات الدينية من أنبياء ورسل دلالات شذت عن المألوف، صاغتها ذهنيته واتجاهه العقائدي، فقد وازن بين الأنبياء في صفاتهم وأفعالهم ودعوتهم ومَمْدوحِيه.

-كان للاقتباسات القرآنية حضورا لافتا عند ابن هانئ، أبان على مقدرة فائقة في الأخذ من الذكر الحكيم، وقد اتخذت هذه الاقتباسات دلالات صاغتها التجربة الشعرية والعقائدية للشاعر.

6. الهوامش:

[1]- أحمد زنيبر: جمالية المكان في قصص إدريس الخوري، التنوخي للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2009، ص: 19.

* المعز لدين الله الفاطمي: الخليفة الفاطمي الرابع، وُلِدَ أبو تميم معد بن المنصور بمدينة المهدية في 11 رمضان 319هـ، يتصل نسبه بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم من ناحية ابنته فاطمة، وإلى ابن عمه علي بن طالب كرّم الله وجهه، فهو فاطمي وعلوي، ظهرت عليه أمارة الفطنة والذّكاء منذ صغره، نشأ في بيت علم وجاه، زرع فيه والده المنصور حب العلم والتعلم، فراح منذ نعومة أظافره يطالع الكتب ويقرأها، ويحضر مجالس العلم والعلماء، حتى أضحى ضليعا في العلوم، يحاضر العلماء والفقهاء والنحاة وغيرهم، تولى الخلافة يوم وفاة المنصور شهر شوال 341هـ، امتدت خلافته من بلاد المغرب غربا إلى مصر والشام شرقا، ارهب الصليبيين، فسارعت الروم إلى محالفته مخافة فقدانها قلورية، عرفت فترة خلافته نهضة علمية، فقد شجع العلم والعلماء، وكان يستحث شعبه للتزود من العلم، ويلوم من يتقاعد منهم عن ذلك. عمل على نشر دعوته الإسماعيلية في البلاد الإسلامية، فكان يبعث مناشيره ومحاضراته إليها. كما كانت قصور الخلافة والمساجد منابر يتلقى من خلالها الإسماعيلية أصول مذهبهم الشيعي. ألّف كتبا سمّيت بكتب الباطن "، ينظر: حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، مكتبة النهضة المصرية القاهر، مصر، دط، 1367هـ/1947م، ص: 03-04-09-10-13-21-222-223. (بتصرف).

[2]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، تح: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1980، ص: 13.

[3]- سورة الفتح، الآية: 24.

[4]- عمار بن لقريشي، معمري فواز: دلالة المكان في الشعر الجاهلي، حوليات الآداب واللغات، جامعة المسلة، مج4، ع2، 2016/12/15، ص: 02.

[5]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 206.

[6]- سورة الأحزاب، الآية: 13.

[7]-يقول حسان بن ثابت مادحاً يثرب مفتخراً:

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا إِذَا التَبَسَ الأَمْرُ مِيزَانُهَا.

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا إِذَا قَحَطَ القَطْرُ نُوآنُهَا.

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا إِذَا خَافَتِ الأَوْسَ جِيرَانُهَا.

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيـ تَ عِندَ الهَزَاهِزِ ذُلّانُهَا.

حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، تح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص: 248.

[8]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 13.

[9]- محمد رافع القاضي: استدعاء الشخصيات التاريخية في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2020، ص: 11.

[10]- أحمد مجاهد: التناص الشعري دراسة في توظيف الشخصيات التراثية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص:08.

[11]- سورة: الأنبياء، الآية: 107.

[12]- سورة: القلم، الآية: 04.

[13]- سورة: الفرقان، الآية: 61.

[14]- سورة: النبأ، الآية: 13.

[15]- سورة: الأحزاب: الآية:46.

[16]- وهذه بعض من أبيات "أغنية محمد" التي وردت في كتاب " جوته والإسلام ":

وبخطى أقدام القائد

شَدَّ مَعَهُ إِخْوَانه

وأَخَّذَهُمْ مَعَهُ

آلاَفُ الأَعلاَم حَولَ جَسَدِهِ

يَتَلَمَسُونَ جَمَالَهُ مِن عَبَق الهَوَاءِ

ينظر: كاثرينا ممسين: جوته والإسلام رؤية قديمة لعالم معاصر، تر: شرين فهمي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 43.

[17]- المرجع نفسه: ص: 44-48.

[18]- قصيدة البُرْدَة أو البُرْأَة للبوصيري، وَفَدَ بها على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو مريض، فعوفي من وقته وساعته، وهذه بعض من أبياتها:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَقَلَيْنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ

هُوِ الحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ

فَاقَ النَبِيينَ فِي خَلَقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ ولا كَرَمِ

البوصيري: الديوان، تح: محمد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1955، ص: 192-193.

[19]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 146.

[20]- المصدر نفسه، ص: 13.

[21]- سور الشعراء الآية: 12-13.

[22]- سورة القصص: الآية 34.

* "أبو جعفر بن علي بن أحمد بن حمدون الأندلسيّ، صاحب المسيلة وأمير الزاب من أعمال إفريقية، كان سخيا كثير العطاء مؤثرا لأهل العلم، وكان أبوه قد بنى المسِيلَةَ وهي معروفة بهم إلى الآن"، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، مج1، دط، 1978، ص: 360. "يحي بن علي بن حمدون الجُذامي بن الأندلسيّ وله ولأبيه وأخيه جعفر رئاسة معروفة ونباهة في أيام العبيدية مذكورة، وعلي بن حمدون هو الذي بنى المسيلة من بلاد الزاب الأكبر وسكنها ابنه جعفر معظم شأنه"، ابن الأبّار: الحلة السيّراء، تح: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ج1، دط، 1964، ص: 305. ،" وقد ذكر محمد بن يوسف الورّق خبرهما، قال: وهما ابنا عليّ بن حمدون، وجدهما الأكبر عبد الحميد كان الداخل إلى الأندلس من الشام، ونزل بكورة إلبيرة، ثم تنقل حفيده حمدون، جدُّ جعفر هذا إلى بجاية، وصحب أبا عبد الله الشيعي الداعي ودخل في مذهبه، فلما تغلب الشيعي على إفريقية ظهر علي بن حمدون، ثم ازداد ظهورا في أيام عبيد الله المهدي حُظْوَةً وضمه إلى أبنه أبي القاسم ولي عهده، فازداد حظوة لديه، وخرج معه إلى أرض الغرب، فأمره ببناء مدينة المسيلة و ولاه عليها"، ابن عذارى: البيان المعرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تح: معروف بشار عواد، محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، مج2، ط1، 2013، ص:223.

[23]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 158.

[24]- سورة نوح، الآية: 05-09.

[25]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 273.

[26]- حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، ص: 235.

[27]- سورة ص، الآية: 17-20.

[28]- سورة ص، الآية: 26.

[29]- سورة الأنبياء، الآية: 80.

[30]- سورة سبأ، الآية: 10.

[31]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 248.

[32]- المصدر نفسه، ص: 247.

* " شَذَبَ: الشَّذْبُ: قِطَعُ الشَّجَرِ، الواحِدَة شَذَبَةٌ، وهو أيضا قِشْرُ الشَّجَرِ، والشَّذْبُ المصدر والفِعْلُ يَشْذُبُ وهو القَطْعُ عن الشَّجَرِ، وقد شَذَبَ اللِّحَاءَ يَشْذُبُهُ ويَشْذِبُهُ، وشَذَّبَهُ: قَشَّرَهُ، وشَذَبَ العُودَ يَشْذُبُهُ شَذْباً: ألقى ما عليه من الأغصان حتى يَبْدو، وكذلك كل شيء نُحِّيَ عن شيء فقد شُذِبَ عنه"، ابن منظور: لسان العرب، مادة (شذب)، تح: عبد الله الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، مج4، ج25، ص: 2218.

* " سَمْهَرَ: السَمْهَرِيُّ: الرمح الصَّلِيبُ العُودِ" ابن منظور: لسان العرب، مادة (سمهر)، مج3، ج24، ص: 2106." السَمْهَرِيُّ: الرُّمْحُ الصُّلْبُ، والمنسوب إلى سَمْهَرٍ زوجِ رُدَيْنَةَ، وكانا مُثَقَّفَيْنِ للرِمَاحِ، واسْمَهَرَ: صَلَبَ، واشْتَدَّ، واعْتَدِلِ، وقَامَ"، الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمد العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005، ص: 410

[33]- الثعالبي: الاقتباس من القرآن الكريم، تح: ابتسام مرهون الصفار، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ج1، ط1، 1992، ص: 38.

[34]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، دار النمير للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1996، ص: 13.

[35]- المرجع نفسه، ص: 13-14.

[36]- ابن خلدون: المقدمة، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 2001م، ص: 740-741.

[37]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 357.

[38]- المصدر نفسه، ص: 150.

[39]- سورة الأعراف، الآية: 160.

[40]- سورة البقرة، الآية: 60.

[41]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 146.

[42]- الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج1، ط1، 1994، ص: 272.

[43]- ابن قتيبة: تفسير غريب القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1978، ص: 173.

[44]- الطّبري: تفسير الطبري (من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن الكريم)، تح: بشار معروف، عصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، مج3، ط1، 1994، ص: 512.

[45]- القرطبي: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان)، تح: عبد الله التركي، محمد عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2006، ص: 138.

[46]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 144.

[47]- سورة النجم، الآية: 39.

[48]- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص: 1785.

[49]- علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، ط1، 1351هـ/1933م، ص: 119-120 (بتصرف).

[50]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 192-194.

[51]- المصدر نفسه، ص: 200.

[52]- المصدر نفسه، ص: 211.

[53]- ينظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص: 1001.

[54]- سورة الرعد، الآية: 02.

[55]- سورة لقمان، الآية: 10.

[56]- سورة الإسراء، الآية: 92

[57]- سورة الشعراء، الآية: 187.

[58]- سورة الجن، الآية: 08.

[59]- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص: 1384.

[60]- سورة الجن، الآية: 09.

[61]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 158.

[62]- سورة طه، الآية: 25.

[63]- سور الشعراء، الآية: 13.

[64]- سورة الحديد، الآية: 22-23.

[65]- ابن هانئ الأندلسي: الديوان، ص: 303.